تقديم كتاب: مدخل إلى علم الإناسة

بين أيدينا اليوم كتاب بعنوان"مدخل إلى الأنثروبولوجياIntroduction à L'Anthropologie لصاحبه"كلود ريفيارClaude Riviére وهو أستاذ مميز بجامعة رني ديكارت بباريس. والنسخة التي سنقدّمها اليوم هي النسخة الثانية المنقحة الصادرة عن دار "هاشيتHachette"لسنة 1999بعد أن صدرت النسخة الأولى منه سنة 1995.

وقبل أن نخوض في تقديم محتوى الكتاب، من المهم أن نشير إلى مسألة منهجية مهمة تتعلق بخصوصية هذا العمل. وهي أن تقديم كتاب ما يختلف في منهجه وأهدافه عن الأنشطة العلمية والمعرفية الأخرى كالترجم ة والقراءة التأويلية والعرض وغيرها . فالباحث في مثل هذا العمل يمرّ بمرحلتين : أولاهما وصفية يقع التركيز فيها على أهم المسائل الواردة في الكتاب دون الدخول في جزئيات مادته وتفريعاتها المختلفة حتى يفسح مساحة لإثارة الفضول المعرفي للمتلقي، وثانيتهما نقدية تُجلّي موقفه مما يقرأ.

يمثّل كتاب كلود ريفيير "مدخل إلى الانثروبولوجيا" أحد أهم المراجع المتعلقة بالانثروبولوجيا لأنّه لم يعتمد الطريقة المدرسيّة "الباردة" للتعريف بهذا الاختصاص العلمي الحديث في مجا ل الإنسانيات. ذلك أنّه لم يكتف بالعرض الكرونولوجي لنشأة هذا العلم أو بالتعريف الابستمولوجي لموضوعه، لمجال عمله أو طرائقه النظرية، وإنّما بسط كل هذه المحتويات الضرورية للمهتمين بهذا الاختصاص بطريقة إشكالية أحاطت برهانات هذا العلم وبالخلفيات النظرية لمدارسه وعلاقة نظرياته السابقة واللاحقة بعدد من المفاهيم "الخطيرة" مثل قضية "المركزية" الأوروبية والنظريات العرقيّة وغير ذلك.

يعرض الكتاب أهم المفاهيم والطرائق (أو المناهج) التي تعتمدها الانثروبولوجيا بداية من مؤسسيها حتى أقطاب هذا العلم المعاصرين . لقد تناول ريفيير في مؤلفه هذا جل هذه المواضيع بطريقة واضحة وشاملة ما جعله مرجعا لا غنى عنه ودليلا لمن اختار هذا الاختصاص.وقد توزعت مادة الكتاب على سبعة أبواب:

1 ــ مفاهيم الانثروبولوجيا ومناهجها

2 ــ أهم تيارات الأنثروبولوجيا ومدارسها

3 ــ القرابة من وجهة نظر الإتنولوجيا

4 ــ الانثروبولوجيا الاقتصادية

5 ـــ الانثروبولوجيا السياسية

6ـــــ الانثروبولوجيا الدينية

7 ـــــ نظرة على الانثروبولوجيا المعاصرة

وستكون منهجيتنا في العمل معتمدة على تقديم لمحة عن أهم العناوين الواردة في كل باب دون الخوض في تفاصيلها حتى نترك مجالا للباحث المهتم بهذا العلم حتى يطلع على الكتاب . لكننا في نفس الوقت اخترنا بابين سنحاول أن نفصل القول في ما ورد فيهما.

الباب الأول: مفاهيم الانثروبولوجيا ومناهجها

لتحديد علمية أي مجال بحث، يتوجب تحديد موضوعه أو مجال اشتغاله بشكل دقيق وعلاقته بالعلوم المتدخلة في نفس مجال البحث.

منذ البداية يطرح ريفيير أخطر الاشكاليات التي تواجه الانثروبولوجيا، ففي التعريف المتعارف عليه والذي صار كأنّه بديهة ، تعني الانثروبولوجيا "دراسة الإنسان" أو علم الإ نسان. وهذا التعريف يطرح حسب ريفيير إشكالا ابستمولوجيا سوف ينعكس على مجمل المدونة الانثروبولوجية. الإشكال هو ما يوحي به التعريف من وجود هذا "الانسان" الكوني، في حين أنّ كل المقاربات الانثروبولوجية تتحدث عن الشرط الاجتماعي والثقافي لهذا الإنسان، أي أنّها دراسة إنسان مخصوص في مجتمع مخصوص . وهذا الاشكال سينعكس في تصنيف رواد الأنثروبولوجيا للمجتمعات . إذ من خلال مفاهيم "المجتمعات البدائية" أو "المجتمعات السفلى" أو "المجتمعات البسيطة" تسرّبت عقلية تصنيفية تعتبر المجتمعات الغربية هي الأرقى بناء على خلفية وضعية كانت ترى أن التاريخ يسير في خط تصاعدي من التخلّف إلى التقدّم. وهو ما اعتبره ريفيير أحد الأخطاء الخطيرة أو خطايا المقاربات الانثروبولوجية التي ستعتمد فيما بعد مبرّرا للهجمة الاستعمارية التي استهدفت دولا "غير غربية" أو متخلفة حسب المقاربات الأنثروبولوجية.

*الآخر:

إنّ الدراسة المقارنة للمجتمعات، بما هي إحدى أهداف الدراسات الانثروبولوجية، تفترض الحديث أولا عن المخاطر التي قد تنزلق فيها هذه المقاربات التصنيفية، حسب رفيير. فالأمر يتوقّف على طريقة النّظر إلى هذا "الآخر"، ذلك أنّ النظر إليه كآخر "متخلّف" عوضا عن آخر "مختلف" سينزلق بالباحث إلى أحكام قيمة وهو ليس مجال العلم مثلما أوضح دركهايم في تمييزه المعروف بين أحكام القيمة وأحكام الوقائع.

*المركزية "الإثنية" ethnocentrisme

أوضح ريفيير أنّ التركيز على "غرابة" الآخر في الدراسات الانثروبولوجية وتصنيفه باعتباره متخلّفأو "أدنى" أو "ما قبل منطقي" كانت من نتائج تأثير نزعة المركزية "الاثنية" الغربية التي سقط فيها عدد من رواد الأبحاث الانثروبولوجية على غرار أتباع المدرسة التطورية خاصة كما هو الأمر عند ليفي بروه ل ومورغان وغيره ما. وكانت لمدرسة النسبية الثقافية التي ازدهرت في أمريكا الفضل في فتح أفق جديد

للدراسات الانثروبولوجية بالتأكيد على نسبيّة الثقافات وتمايزها عن بعضها انطلاقا من ع لاقتها بمتغيرات عديدة مثل المناخ والجغرافيا وغيرهما. وقد أكّد كلود ليفي ستراوس على نفس هذه المقاربة كنتيجة لاعتماد المنهج البنيوي لدراسة عدد من المجتمعات والجماعات التي كانت توصف بالبدائية. لقد اعتبر ستراوس أنّ الذي يحكم قيميا على المجتمعات الأخرى إنما يتخذ هذا الموقف انطلاقا من ثقافته الخاصة، وهو ما يعني بالنسبة إليه أنّ المركزية الإثنية بالنسبة للوعي الجماعي هي نظير الأنانية بالنسبة إلى الوعي الفردي.

فكلّ إنسان عربيّا كان أو هنديّا أو فرنسيّا، ميّال بطبعه إلى الاعتداد بثقافته وإلى تحقير كل من لا يشبهه من حيث اللغة والسمات ونظم الحياة . فحين تمّ اكتشاف القارة الأمريكيّة لم يعترف الإسبانيون بانتماء الهنود الحمر إلى جنس البشر لتبرير استعبادهم، في حين كان الهنود الحمر يقتلون الإسباني ليتأكّدوا من قابليّته للموت.

تعنى الانثروبولوجيا، وفق مقاربة ريفير، بدراسة الوحدات الاجتماعية المتناسقة سواء الصغيرة منها أو تلك التي يمكن أن تكون عيّنة لمجتمع أشمل يروم الباحث في الاثروبولوجيا دراسته، الذي بإمكانه، إذا توسّل مسالك منهجية سليمة أن يتوصّل إلى نتائج يمكن تعميمها.

وانطلاقا من هذه الرؤية المنهجية والابستمولوجية يُصبح مدا ر أسئلة الباحث الانثروبولوجي : ماهي طبيعة مجتمع الدراسة ومنابع تقاليده ومؤسساته ؟ كيف يتفاعل الإ نسان داخل مجموعة ما مع ثقافته؟ وكيف تتجلى الاختلافات في الممارسات الثقافية والاجتماعية بين مجموعات متجاورة؟

إنّ مثل هذه الأسئلة تمكن من القيام بدراسات مقارنة بين الجماعات والمجتمعات دون الانزلاق في التصنيفات والتراتبيات التي انتقدها ريفير.

2-علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم المجاورة:

وقد تطرق الكاتب في هذا الباب أيضا إلى علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم المجاورة فبين أن الأنثروبولوجيا ليست علما مستقلا بذاته وإنما هو مجال منفتح على الكثير من العلوم المجاورة كعلم الاجتماع والتاريخ واللسانيات والجغرافيا وعلم النفس.

3-الطريقة والمنهج:

وبما أن الأنثروبولوجيا علم ميداني تحدث ريفيير عن أهمية المغامرة الأثنولوجية في الميدان وأشار إلى قيمة الملاحظة والاستعانة بالمرشدين .

الباب الثاني: التيارات الكبرى في التفكير الإثنولوجي

1-المدرسة التطورية:

2-المدرسة الانتشارية

3-المدرسة الثقافية

4- الاثنولوجيا الفرنسية

5-المدرسة الوظيفية

6-المدرسة البنيوية

7-هيمنة المدرسة الأمريكية.

الباب الثالث:أنثروبولوجيا القرابة

الباب الثالث: أنثروبولوجيا القرابة

تحدث الباحث في هذا الباب عن القرابة باعتبارها رابطا وعن المجموعات والفرق القرابية وعن النسب والانتساب وعن الزواج وكيفية اختيار الشريك وأشكال التبادل وأنماط خاصة من الزواج والجنس قبل الزواج، وتحدث أيضا عن العائلة والزواج التعددي والإقامة وكيفية التعامل بين الآباء والزوجين، وتطرق أيضا إلى مسألة الميراث.

الباب الرابع:الأنثروبولوجيا الاقتصادية

يهتم هذا الفرع من الأثروبولوجيا أساسا بظروف الإنتاج المادي. ويشمل بذلك مشاكل الإيكولوجيا والتكنولوجيا. ومن مواضيع اهتمامه أيضا المبادلات والحق في الوسائل وأشكال الاستعمال واستهلاك المنتوجات والبضائع وإزجاء الخدمات.

وتعتبر الأنثروبولوجيا الاقتصادية فرعا حديثا ساهمت في تطوره ثلاثة أعمال:

-الملاحظة التجريبية للمجتمعات غير الرأسمالية. وقد دفعت هذه الملاحظة إلى مراجعة الكثير من الأحكام المسبقة من قبيل انغلاق هذه المجتمعات بسبب تحقيق اكتفائها الذاتي، أو عدم وود حقوق أخرى غير الحقوق الجماعية على الأرض والأشياء.

-نقد عدم ملاءمة المفاهيم المستعملة من قبل الاق تصاد السياسي التي زعم أنها ممكن أن تنطبق على كل المجتمعات.

-فهم معوقات تطور العالم الثالث.

1- لمحة تاريخية:

نتعرف في هذه اللمحة التاريخية إلى ثلاث قراءات مختلفة لما يمكن أن يصنع ثروات الأمم:

-المركنتلية هي نظام اقتصادي نشأ في أروبا بعد تفسخ النظام الإقطاعيلتعزيز ثروة الدولة بتنظيم الاقتصاد واعتبار المعادن الثمينة ثروة الدولة الأساسية.

-الفيزيوقراطيين هم الذين يعتبرون أن الزراعة مصدر الثروة الوحيد.

-أما في مطلع الثورة الصناعية فالعمل هو المصدر الوحيد لتلك القيمة، والمحرك الأساسي للنظام الرأسمالي ليس إلا العمل غير المدفوع الأجر للعمال الذين حرموا من ملكية وسائل الإنتاج وليس عندهم من بضاعة للبيع سوى طاقة العمل ليستمروا في الحياة.

وقد كان لويس مورغان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر من أوائل الإثنولوجيين الذي درس بطريقة منظمة فنون المعاش في المجتمعات البدائية.

في العشرينات لفتت الأعمال التي قام بها كل من بواس ومالينوفسكي ومارسيل موس الانتباه إلى وظيفة التبادل بقواعده الاحتفالية والتفاخرية وإلى أن الاقتصادي ينجز في إطار اجتماعي تام يتفاعل فيه الدين والسياسة والقرابة.

واهتمت الأيكولوجيا الأمريكية منذ الخمسينات بالعلاقة بين المجتمعات وبيئاته ا وركزت على عوامل القحط المزمن، والنقص في تنوع المصادر ...

لكن الجدل النظري الأكبر الذي يعود إليه الفضل في نشأة الأنثروبولوجيا الاقتصادية هو ذاك الذي دار في الستينات بين الشكلانيين والجوهرانيين والماركسيين.

2-الأيكولوجيا:

عرفها بأنها الدراسة العلمية لعلاقة الإنسان والمجتمعات بالوسط الطبيعي، ولا تهتم هذه الدراسة فقط بتأثير البيئة أي المناخ والتربة والمياه والنباتات ...على المجموع الإنساني ولكن أيضا تهتم بالتكيف

الفيزيولوجي للإنسان مع مختلف الأوساط والتغيرات التي تحدثها التكنو لوجيا على البيئة وبالتأثير الذي يمكن أن يكون للأوساط المختلفة على مستويات العيش ونظمه.

هناك إذن تأثير متبادل بين الطبيعة والثقافة التي تغير الطبيعة .

3-التكنولوجيا الثقافية:

التكنولوجيا هي مجمل الأساليب التي تؤثر بواسطتها المجتمعات في بيئتها. وينبغي هنا أن لا نخلط بين جملة من الأمور فصلاة استسقاء فعل شعائري يؤدَّى للتأثير في الطبيعة بشكل طقسي لكنه ليس فعلا تكنولوجيا. أما تزويق شيء أو مبنى وفق الذوق الخاص بثقافة معينة ففعل متصل بالتكنولوجيا . وكل تقنية ترتكز على جملة من العناصر أ همها: المادة التي يُشتغَل عليها ، والأدوات والوسائل المستخدمة، وحركات عامل أو مصدر طاقة .

4-أنماط الإنتاج وأشكاله وعلاقاته:

تطرق الكاتب في هذا العنصر إلى خمسة مسائل:

أ-الإنتاج:

إن المبدأ الذي يقوم عليه النظام الاقتصادي بالنسبة إلى الماركسية ليس التوزيع وإنما الإنتاج. وكل شكل من أشكال الإنتاج يعرف بكونه علاقة نوعية بين مجموع الوسائل المادية والعوامل المساعدة على الإنتاج في مجتمع ما (مواد أولية ،أدوات، رأسمال ...)من جهة والظروف الاجتماعية للانتاج من جهة أخرى.

ب-الظاهرة الاجتماعية الشاملة:

لا يلخص الاقتصاد في التأقلم مع المحيط الطبيعي ولا في تسخير العمل والمصالح والأرض لتحقيق نفع ما ، ولا في الاستجابة للحاجات المادية فقط وإنما أيضا لتحقيق أغراض غير مادية: مثل بناء منزل جميل بهدف التفاخر والتباهي أو العمل عند الصهر المستقبلي من أجل الزواج بابنته...أي يستحيل أن نجد مجتمعا واحدا يعمل من أجل الاستكفاء الاقتصادي ودون مقايضة.

ج-الندرة:

ينبغي تنسيب مفهوم الندرة مثلما تم تنسيب الاستكفاء القتصادي

د-العمل:

يتم توزيع العمل وفق جملة من المعايير أولا حسب السياق الأيكولوجي الذي يسمح بالالتقاط أو الصيد أو لا يسمح بهما ، والفلاحة في الفصول الممطرة ، والعمل الحرفي في فصول الجفاف.

ويتم توزيع العمل أيضا حسب الجنس : فالرجال مثلا يهتمون بالصيد والحرب واستصلاح الأدغال. بينما تهتم النساء بالطبخ وتربية الأبناء ونقل المحاصيل وغيرها.

ويعتبر العمر أيضا معيارا من معايير توزيع العمل، فالأطفال مكانهم البيت والفتيان يتدربون على أعمال الآباء والشيوخ يخلدون إلى الراحة.

ويعتبر التخصص والكفاءة أيضا معيارا مهما من معايير توزيع العمل..

د-الملكية:

إذا أردنا تعريف الملكية نقول إنها الحق باستعمال شيء ما والانتفاع به والتصرف فيه بشكل حصري مطلق. ويستعمل هذا الم فهوم عند إنشاء أو وضع حدود أو تحويل للحقوق في الأرض أو الثروات أو الأموال وعلى الأشخاص(العبيد). وقد ميز الكاتب هنا بين ملكية ثروات مادية وملكية ثروات غير مادية، بين ملكية جماعية (قبيلة)وملكية فردية.

5-تبادل الثروات والخدمات وتوزيعها:

عرفت المجتمعات أشكالا عديدة من التبادل منها التحايا والمحاورات والأشخاص والحقوق على الأشخاص(العبودية..)تبادل الضربات في الحروب، لكن التبادل الاقتصادي لا يتعلق إلا بالثروات المادية والخدمات. وقد تطرق الكاتب إلى مجموعة من أشكال التبادل الاقتصادي فتحدث عن الهبة والمبادلة والتجارة والعملة والسوق.

6-الاستهلاك:

نعني بالاستهلاك استعمال ثروة أو سلعة (الطعام، الملابس، الأثاث ...) أو الانتفاع بخدمة (قص شعر، حصة سينما...) وذلك بشرائها أو بحيازتها أو بإتلافها. لكن هذا الاستهلاك ليس مجرد استجابة لحاجات خاصة وإنما هو شأن اجتماعي بشكل كبير كأن يتحول الطعام من تلبية لدافع الجوع إلى ضيافة توثق العلاقات الاجتماعية. وهو أيضا(الاستهلاك) معبر عن الهوية الفردية أو الجماعية وأداة تواصل بين الأفراد والجماعات وعلامة على المراتب الاجتماعية للأفراد، والخصوصية الثقافية للجماعات.

7-بعض الأنماط الاقتصادية:

أ-القناصة-القاطفون:

إن المجتمعات التي تعيش على نشاط القنص والقطف والصيد أيضا تعيش في شكل جماعات تتألف عادة من 20 إلى100أو 200 شخص وهي جماعات تخيم في الأماكن ضعيفة الموارد النباتية والحيوانية.

ب-الفلاحون:

ينتج الفلاح،على عكس القاطفين، النباتات والحيوانات ويستغلها لغايات تتجاوز مجرد تحقيق الغذاء، فهو يزرع القطن لصنع الملابس، ويستعمل الخشب في البناء أو لتشغيل الآلات الصناعية، ويستخدم بعض الأعشاب في التداوي أو أو في ممارسات طقوسية....

ج-الرعاة ومربو الماشية:

لا يقصد بهذا النشاط تربية النحل أو الدجاج أو الكلاب أو الفيلة وإنما يقصد به تربية الحيوانات العاشبة التي تعيش في شكل قطعان. وتكون تنمية القطيع في المجتمعات البدائية لأجل الهيبة ويقع تداوله عبر الاقتراض أو والهبة والسرقة. أما في المجتمعات الحديثة فيكون تداول هذه الحيوانات عبر المسلك الاقتصادي التجاري.

الباب الخامس: الأنثروبولوجيا السياسية

ن الأنثروبولوجيا السياسية تعتبر تخصصا حديثا فقد ظهرت في أربعينات القرن الماضي في الأنثروبولوجيا البريطانية الوظيفية، وذلك ليس لدراسة الحكومات فقط وإنما لدراسة مختلف التنظيمات السياسية حسب ظهورها الزماني أو المكانيوكذلك لدراسة مختلف النظم الفكرية والرموز التي تضفي الشرعية على السلطة.

وتطرق الكاتب إلى تعريف جملة من المصطلحات التي ارتكزت عليها الأنثروبولوجيا السياسية:

*التأثير: هو تغيير تصرفات الآخر وممارساته عبر مسار تواصلي.

*القوة: هي تغيير تصرفات الآخر بواسطة طرق حسية فيزيائية.

*النفوذ

*الهيمنة

*الشرعية

وقد عالج الكاتب في نفس الباب مسألة ممارسة السلطة خارج الإطار السياسي وذلك بالتحديد في المجتمعات التقليدية التي تلعب فيها الرابطة الدموية دورا كبيرا في تنظيم العلاقات وحل النزاعات وتسيير نصالح المجموعة. وهذا منفذ لتكتسب السلطة بعض القداسة.

ثم تحدث الكاتب عن دور الاقتصادي في تثبيت السلطة، الثروة التي يملكها شخص ما تمكن له في المجتمع وتمنحه الهيبة التي تجعله قوي النفوذ.

الباب السادس: الأنثروبولوجيا الدينية

حين نشأت الأنثروبولوجيا الدينية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر راكمت عددا لايستهان به من المشاكل الوهمية التي جعلت من تطورها أمرا صعبا . فمن تايلور وصولا إلى دوركهايم ظن الجميع أنه بالإمكان تفسير تعقيد الظواهر الدينية بإقرار نشأة مفترضة للأديان ورسم لظورها.

فقد حاول **تايلور** رسم جدول لتطور الوثنيات انطلاقا من المعتقدات الثنائية حتى التوحيد. من هنا نشأ السجال حول ماقبلية التوحيد أو الشرك(تعدد الآلهة)وامتد أيضا ليشمل أسبقية العاطفة والانفعال على الطقس أو لاحقيتها.

ويعتقد **دوركهايم** أنه وجد ماهية الديني في أشكاله الأولية من طقوس ومعتقدات يهيمن عليها الصراع بين المانا والطوطم والحرام. وهي معتقدات أفرزها المجتمع الذي يقدس ذاته..

أما **ماكس مولر** المختص في الميثيولوجيا فقد اشتغل على الآلهة في الهند وفي العالم القديم ، وافترض أننا نمر من معطى جمال مشاهد العالم إلى التعبير عنه مجازيا، انتهاء إلى تجسيد هذه الرموز في شكل آلهة: أبولون(الشمس)يصطاد الفجر الذي يفلت منه متحولا إلى شجرة غار.

ويضبط **فريزر** ممرات قسرية من السحر إلى الدين ثم إلى العلم . فيما أبرز **مارسيل موس Marcel-Mauss** التعارض بين أصل الدين وجوهره وأصل السحر وجوهره . أما **فرويد** Freudفقد خلص من دراسته لماهية الدين أن الإله هو انعكاس مُعَلَّى لصورة الأب . ولا بد من الاعتراف أن **ليفي-بروهل Levy-Bruhl** من أفضل المحللين للظواهر الدينية في المجتمعات القديمة، رغم أنه اعتبر العقلية البدائية متضادة ومتعارضة مع العقلية المنطقية. في نفس هذا المناخ اهتم كل من **غريول** M.Griauleمن خلال دراسته للعالم الإفريقي و **لينهارت** M.Leenhartمن خلال دراسته للعالم الميلانيزي(جزر تقع في المحيط الهادي وكانت من مستعمرات فرنسا)بأشكال التفكير بواسطة الرموز وقراءة الثقافات المحلية عبر الأساطير . واهتم كلود ليفي شتراوس بالدراسة البنيوية للأسطورة فيما كانت أبحاث تورنيرV.Turner وقلوكمانM.Gluckman مهتمة بدراسة الطقوس.

1-الدين والمقدس: الحدود:

أ-تعريف حقل الأنثروبولوجيا الدينية:

وتمثل الأنثروبولوجيا الدينية جزءا من الأنثروبولوجيا الرمزية التي تشمل جميع أوجه الرمز في اللغة والفنون والثقافة، وهي تدرس الإنسان باعتباره صانع رموز في علاقته بما قدَّر أنه مفارق للطبيعة

أو مقدس. لكن مجال تخصصها يقتصر على الديانات في المجتمعات الصغيرة . أما ديانات الخلاص فقد تركت شأن دراستها لعلم اجتماع الأديان . وقد اهتمت الأنثروبولوجيا الدينية أيضا بدراسة السحر والشعوذة وأشكال التنظيم الديني إلى جانب اهتمامها بما سمي بالعقلية البدائية.

وإذا أردنا تحديد مجال هذا الحقل وجب وضع مخطط لذلك:

*موضوع الدين هو،من جهة، القوى(الله-الجن-المانا- التعاويذ- الأسلاف- الشياطين)، ومن جهة أخرى، الأماكن والأوساط المق دسة التي تسكنها القوى والأرواح (الحجارة-الأشجار- الماء-النار- الحيوانات).

*موضوع الدين هو- بلا شك- الإنسان المقدس(ملك-كاهن- قديس-ساحر)ولكن أيضا الجماعات الشعائرية(العشيرة- الكنيسة- الطائفة- الجماعات السرية). ويشمل أيضا العناصر المسماة روحانية في الإنسان(النفس-الروح).

*إن أشكال التعبير عن التجربة الدينية مختلفة : فهي ذهنية (معتقدات- أساطير- عقائد)وتطبيقية تتجلى في شكل ممارسات (شعائر، طقوس، احتفالات- ممارسات سحرية) واجتماعية (أنماط العلاقات الاجتماعية في إطار مؤسسة أو تنظيم ديني . تصنيفية متغيرة بتغير أنماط الاقتصاد المهيمنة (دين المحارب، التاجر، الفلاح...).

*ويقوم الدين بوظائف متعددة من أهمها : التفسير، التنظيم، بث الشعور بالأمان والطمأنينة، الإدماج، ودافع إلى الاجتماع والاتحاد بين المؤمنين.

ب-تصحيح الأحكام المسبقة:

إن الأنثروبولوجيا الدينية تفرض على الدارس رسم مسافة مع ما يدرس، وهذا يتطلّب تصحيح جملة من الأحكام المسبقة على النحو التالي:

*إن التمييز بين المقدس والدنيوي تمييز غير ثابت، فهو يختلف حسب المكان والزمان : الشمس التي كانت مقدسة بالنسبة إلى المصري القديم ليست كذلك بالنسبة إلى الإنسان المعاصر.

*الإنسان الذي يفترض أنه مؤسس الدين : موسى، بوذا، المسيح، محمد ...هو الذي يفرض سلطة المقدس عبر جملة من الإلزامات والمحرمات حتى وإن قال إن مصدرها هو الوحي.

*ثنائية الجسد المادي والروح هي افتراض مسيحي بالأساس.

*الديانات الشركية(التعددية) أكثر انتشارا وحضورا في التاريخ الإنساني من الديانات التوحيدية . لكن لا شيء يثبت أنها أصل التوحيد أو مرحلة نهائية من المعتقدات.

*ليس هناك ماهية وجوهر للدين، ولكن هناك أشكال متنوعة من الأديان في الزمان والمكان لكل منها تمثيلات (أساطير، معتقدات ..)وممارسات(أفعال وأقوال)وتنظيمات ومؤسسات يختلف بها عن غيره.

*تعدد الأديان لا يمكن أن يسمح باعتبار أحدها صحيحا والبقية مسودات له.

ج-مفهوم المقدس:

إن الاعتقاد هو الذي يصنع المقدس ويحدده بكونه ذا مصدر علوي. والتجلي ليس ظهور المقدس في ذاته ولكنه الاعتقاد في أن كائنا ما إنسانا كان أو شيئا آخر هو الذي يحيل رمزيا على مدلول آخر ذي كثافة أنطولوجية. بعبارة أخرى أليس المقدس سوى الاعتقاد في حقيقة متعالية تمنح معنى لنظام الكون ، حين نجهل أسس ذاك النظام.

2-السحر والشامانية والشعوذة:

أ-السحر:

يعرّف السحر بكونه عملا يهدف إلى التأثير في الطبيعة بوسائل خفية تفترض حضور أرواح وقوى خارقة. وحسب الغاية المراد تحقيقها من هذا السحر يمكن تحديد أنواعه ' فالسحر الأبيض يراد به تحقيق عمل خير كشفاء مريض أو نجاح في مشروع. أما السحر الأسود فيراد به إلحاق الضرر بشخص بواسطة أشياء أو حركات أو تعويذات وطلاسم مختلفة. ويستعان فيه بالأرواح الشريرة.

ب-الشامانية:

الشمانية ليست ديانة وإنما هي نوع من الممارسة السحرية التي انتشرت عند شعوب سيبيريا وآسيا الوسطى والتيبت والإسكيمو وهنود أمريكا الشمالية وأندونيسا وأوقيانيا.

ويصبح المرء شامانًا إما بإلهام عفوي أو باانتقال الوراثي، أو بقرار شخصي، أو بإرادة القبيلة . ومهما كانت طريقة الاختيار فلا يعترف بالشامان إلا بعد تلقيه تعليمًا مزدوجًا من نظام وجدي (أحلام، رؤى، ارتعاشات)، ومن نظام تقليدي (أسماء الأرواح، أشكال وأسماء الآلهة، و أنساب القبيلة، واللغة السرية).

وكثيرا ما يتميز الشامان بتشوهات جسدية أو بمزاج عصبي وقد استعار الأثنوغرافيون كلمة الشامان من لغة التونكوز المنتشرة في سيبيريا وتعني الاضطراب والبلبلة؛ فالشاماني يتعرض إلى نوبات انخطافية وجدية يصرخ فيها، ويقفز ويؤدي حركات عنيفة. ويزعم أنه يقيم علاقات التواصل والصداقة مع الأرواح التي تهيمن على عالم النبات و على الحيوانات ويعقد معها الاتفاقات والمعاهدات، بقصد تأمين الطرائد الوفيرة للصيادين، ولكي ينمو الزرع، ولتأتي مواسم الخير. ويدعي القدرة على التأثير في أرواح البشر، وبمقدوره أن يتركها تهيم وتتعرض لهجمات الأرواح الخبيثة . ويؤدي الشامان مهماته عندما يكون في حالة الوجد فقط.

يؤدي الشامان دورًا رئيسًا في الحياة الدينية والاجتماعية للجماعة، لما له من قدرات على شفاء الأمراض، وطرد الشياطين والأرواح الشريرة، ومحاربة السحر الأسود، والتنبّؤ والتبصّر، والدفاع عن التكامل النفسي للجماعة. وبصورة عامة، فالشامان يدافع عن الحياة والصحة والخصب وعالم النور ضد الموت والمرض والعقم وسوء الحظ.

ج-الشعوذة:

الشعوذة هي القدرة على إلحاق الأذى بالآخرين بواسطة عمل روحاني. وتعتقد الأزندي في السودان حسب دراسة أيفنس بريتشارد Evans-Pritchard أنها متصلة بجوهر كامن في أجساد بعض الأشخاص قد ورثوها من آبائهم من نفس الجنس دون أن ينتبهوا هم أنفسهم لوجوده . وتصبح الشعوذة محل اهتمام خاصة أثناء النزاعات داخل المجموعة . وباعتبار الشعوذة عملا شريرا يلحق بالأفراد والجماعات الأمراض والموت والقحط وفشل الأعمال يُعتقَد أنها من فعل شخص أو أشخاص يُشتَبَه في افتراسهم الأرواح.

3-الاعتقاد في الأساطير:

أ-تمثيلات جماعية استعارية:

إذا كان الاعتقاد في السحر والشعوذة مازال راسخا رسوخ الا عتقاد في الدين فإن الاعتقاد في الأساطير يكون أكثر تجليا في الدين. فهي قصة تحكي أصل الأشياء ولحظات تخلقها الأولى وتعلن في لغة مجازية أسس اعتقاد شعب ما في آلهته وفي أصل بعض الأحداث المربكة كالولادة والموت ..إنها إجابة لأسئلة بدئية: كيف نشأ مجتمع ما؟ لماذا يتم تحريم شيء ما؟من أين تستمد السلطة شرعيتها؟من أين جئنا وإلى أين المصير؟

ب-التحليل البنيوي للأساطير:

البنيوية مذهب في البحث يهتم بدراسة الهياكل والبنى النصية، أمّا ما تحمله هذه البنى من دلالات فأمر ثانوي لا يعني الباحث. وهي تهدف إلى تأسيس علم موضوعي مثل بقية العلوم الصحيحة. والبنيوية لا تختص بحقل معرفي واحد وإنما تشمل مجالات فكرية متعددة.

وقد بين كلود ليفي ستروس من خلال دراسته لعدد ضخم من الأساطير في أغلب مؤلفاته إن لم نقل كلها، أن العقل البدائي ينتج نفس البنى الأسطورية . ولا ينظر ستروس إلى الأسطورة باعتبارها انعكاسا لثقافة أو لعلاقات اجتماعية ما بقدر ما يعتبرها نمط تفكير . وتقوم مقاربته على تفكيك الأسطورة إلى وحدات صغرى أو مياثم تنتظم في أعمدة مستقل بعضها عن بعض، ثم إعادة تركيبها تركيبا يكشف عن مضمونها الحقيقي.

ج- أبطال الأساطير:

تقدم الأسااطير الفواعل الرئيسة في قصص خلق الكون في شكل قوى خلاقة كالمانا التي تحدث عنها دوركهايم، أو في شكل إله، أو في شكل مخلوقات يرمز إليها بواسطة ظواهر كالرعد. ويمكن أيضا أن يكونوا في شكل أسلاف مؤسسين.

د- الأرواح باعتبارها أصول حياتية:

ليست الأرواح بالنسبة إلى المجتمعات التقليدية بالضرورة قوة ما فوق طبيعية، أو القوة الكامنة في شيء حقيقي مادي، أو النموذج البدئي لمفهوم الأنا. ففي بعض الكائنات ذات الطابع المادي أو البيولوجي تكمن قوى عديدة.

لقد كان تايلور رائد المدرسة الأرواحية التي تقول إن الأقوام البدائية كانت تؤمن بوجود أرواح تسكن الكائنات الحية والميتة كالحيوان والنبات والماء والنار . لكن تفنيد نظريته هذه اعتمد على نماذج تاريخية: الاعتقاد في الثنائية، نسبة أرواح إلى الحيوانات ثم إلى الجوامد، عقيدة المانا، الإلحاد، التوحيد، الشرك.

والكثير من الشعوب تؤمن بوجود عدة أرواح عند الشخص الواحد، ولكل روح وظيفة خاصة . ف،،الفانغFang في الغابون يؤمنون بوجود سبعة أرواح يمثل كل روح منها عضو (المخ،

القلب...)وبالنسبة إلى البامبرا في مالي يمتلك الإنسان روحين توأمين(نيniو ديا dya) وهبهما إياه الجني فارو Faro ...

هـ -مفهوم التمائم عند دوركهايم:

حاول دوركايم أن يجمع الديانات البدائية حول بعض المفاهيم المفاتيح:

*المانا:

يعتقد المالانيزي بوجود قوة غير مادية وفوق طبيعية فاعلة للإتيان بالخير أو بالشر . وهي موزعة ومبثوثة في كل شيء. وقد تكون المانا مرادفا للحظ أو للبركة عند المجتمعات العربية.

*الطوطم:

هو ظاهرة طبيعية أو كائن حي يكون عادة حيوانا أو نباتا أو إنسانا . تتخذه القبيلة رمزا لها ويكون الانتماء إليها على أساس الاشتراك في ه نفس. وهو أصل المحرمات الغذائية (لا نأكل الحيوان الطوطمي)والمحرمات الجنسية(الزواج ينبغي أن يكون من خارج المجموعة الطوطمية)لأنه يجمع بين اعتقاد أبناء القبيلة بأنهم من نسله واعتقادهم بأنهم قتلوه.

*التابو: الحرام:

هي كلمة من أصل بولينيزي Tapuوتعني المحظور، الممنوع والمقدس . وقد ميز فريزر في الغصن الذهبي أشكالا مختلفة للتابو منها ما هو أفعال كالقتل ومنها ما هو أشخاص كالملك والكاهن والمرأة الحائض، والمحارب ومنها ما هو أشياء كالدم والشعر، ومنها ما هو ألفاظ وكلمات كأسماء الآلة.

4-ممارسة الطقوس:

رغم وجود طقوس دنيوية كآداب المائدة، فأن كلمة،،طقس،، ببعدها الديني تعني جملة من الأفعال والحركات والأقوال المتكررة والرمزية يحركها الاعتقاد والايمان. وكثيرا ما يصاحب ممارسة الطقس جو احتفالي.

ويميز الأنثروبولوجيون بين طقوس مسارة(تلقين أسرار)وهي طقوس عبور مصحوبة بجملة من الاختبارات التي ينبغي أن يجتازها المختبَر لينتقل إلى المرحلة الجديدة ، كطقوس العبور من الطفولة إلى الرشد، وطقوس التقريب التي يقدم فيها المقرب أضحية للإله منتظرا هبة بديلة.

وتنهض الطقوس بوظائف مختلفة، فإلى جانب وظيفتها الاجتماعية الإدماجية، فإن بعض الطقوس تمارس لإضفاء الشرعية على سلطة ما، والإرشاد الأخلاقي ...

الباب السابع: لمحة حول الأنثروبولوجيا المعاصرة

تطرق الكاتب في هذا الباب إلى تصنيفات أنثروبولوجية بألوان قومية : فعرف على التوالي الأنثروبولوجيا الأمريكية ثم الأنثروبولوجيا البريطانية والأنثوبولوجيا البلجيكية والسويسرية والأنثروبولوجيا الألمانية والأنثروبولوجيا الفرنسية، وبين الأسس النظرية وأهم المرتكزات الإبستيمولوجية وأهم الرواد والأعلام في كل منها.

خاتمة.

لقد صاحب كتاب''مدخل إلى علم الإناسة''أن يقدم للمهتمين بدرسة الإنسان في شرطه الاجتماعي والثقافي على مدار سبعة أبواب مفهوم هذا العلم وأهم الشروط التي ينبغي أن يتقيد بها الباحث الأنثروبولوجي، وقد قدم أيضا لمحة عن أهم المدارس والتيارات الأنثروبولوجية دون أن يسقط في السرد التاريخي، وخصص بعض الأبواب ليعرف بعض التخصصات الأنثروبولوجية الحديثة ومنها الأنثروبولوجيا الاقتصادية والأنثروبولوجيا السياسية والأنثروبولوجية الدينية وذلك لأهميتها في تحديث مواضيع الدراسة الأنثربولوجية وفتحها على مستجدات الإنسان في مختلف العصور وخاصة العصر الحديث. وهي فروع وتخصصات كفيلة، لم تمّ الإقبال عليها بالقدر المطلوب، أن تسحب مشاكل مجتمعاتنا العربية من دائرة التوظيف السياسي والإيديولوجي وتفككها تفكيكا علميا وترصد كيفية تشكلها وكيفية السيطرة عليها، وتسهم في التقليل من عوائق التطور والنمو في العالم الثالث.

غير أنّ ما ألحّ عليه صاحب الكتاب من وجوب الموضوعيّة والحياد حتى تكون دراسة الإنسان في شرطه الثقافي والاجتماعية علميّة بدا لنا نسبي الحضور خاصة عند تعريفه ببعض الأنثروبلوجيات التي اكتست طابعا قوميا، فقد غيّب إسهام الباحثين العرب سواء على مستوى الدراسات النظرية والدراسات الميدانيّة. ولم يلمح حتى إلى إسهامات العرب والمسلمين القدامى في م راكمة المادة الأولية (الرحلات خاصة) لما أصبح اليوم أو يطمح إلى أن يصبح علما شبيها بالعلوم ال صحيحة. ولم يكن تطرقه إلى

النموذج العربي إلا في سطر واحد أورده بين قوسين في وضعية المماثلة بين مفهوم المانا ومفهوم البركة عند العرب. وليس هذا التغييب في نظرنا بريئا خاصة أن الكتاب حديث(1995)إونما هي ذات المركزية الإثنية التي لم تر في العرب سوى شعوب متخلفة لا تصلح إلا موضوعا للدراسة العلمية لا فاعلا في الحقل العلمي.